

الماء.. نعمة وهبة جزيلة من واهب النعم



«الماء أغلى مفقود، وأرخص موجود، الحياة لا تقبل إلا بماء، والعيش لا يصح إلا بماء (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) (الأنبياء / 30)، مع الماء الخضرة والندى، والطل والرواء، والظل والحياة، ومع فقدانه الجفاف واليبس والخمود والموت، مع الماء تشدو الأطيوار، وتميل الأفنان، ويبرد النسيم، ويعبق الشذى، وتخضر الأوراق، وتطيب الثمار، ومع الماء تروى الأكباد، وتترطب الشفاه وتندى الألسن، وتنتعش الأنفس، الماء مادة الحياة، وإكسير الوجود، وسر البقاء، إذا عدم الماء زحفت جيوش المجاعة، ودلفت كتائب القحط، وأسراب البؤس، يوم يقع الظمأ في العالم تذوي الأشجار، وتذوب الأكباد، وتحترق السنابل، ويموت العشب. فإذا تدفق الماء، وتداقت أمواجه، وأقبلت صفوفه، أقبل معه البشر والنماء والعطاء ووصل معه الرغد والهناء، بربك هل وقع على نفسك آنس من الماء على الظمأ وأهنأ منه في الهواجر، وأحلى منه في شدة الحر. بالماء تقوم الحقول، وتتكاثر الحبوب، وتميس الحدائق، وتهمهم الجدوال، وتتراقص الخمائل، وتشدوا البلابل، السنابل، الماء شريان نابض في قلب الأرض، إذا تعطل ماتت المعمورة، يوم ينتهي الماء من الدنيا، لا يطاق العيش ولا يستطاع البقاء، ويوم ينتهي الماء من الوجود يفتح الهلاك قلاع الأنفس والثمرات، ويعصف الدمار بالمحاصيل والفواكه، وتأتي الإبادة على الإنسان والحيوان والنبت والجمال. الماء نعمة من الله جليلة، وهبة من الخالق جميلة، (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْزَلْنَاهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

(الواقعة/ 68-69)، خلق الماء عجيب، ونبؤه غريب، صورته ربه بلا لون، وأوجده بلا طعم، وأنزله رائحة، خفيف الروح بهي الطلعة، إن رضي أسعد وأرغد، وإن غضب أربد وأرعد، (وَحَالَ بَيِّنَتُهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) (هود/ 43). سبحان من خلق الماء، إذا باشر البرد الماء جمده فأصبح كالصخر صلبة، وإذا مازجه الحار صيره كالنار توقداً، إذا عذب رق ولطف حتى صار أشهى من الشهد، وإذا أسن مٌج ومُل، حتى أصبح كالسم الزعاف، إن جرى طاب، وتجدد شبابه، وحسنت ثيابه، وجملت طلعتة، وإن وقف تغيرت رائحته، وذهبت لذته، وشاه منظره، فسفره أحسن من مقامه، وإرتحاله خير من حله، يتباشر به أهل البادية، ويتساءل عنه أهل الحاضرة. وغضب على قوم فأتاهم في وفد الطوفان، إذا سكن مشى رويداً، يتمتم بحروف الهناء والتبريك، وإذا غضب تفجر بصيحات الويل وصواعق الدمار، يأتي إلى أحبائه فيميس بين الزهر كيد الطبيب على جفن المريض، ويقبل إلى أعدائه فلا تمنعه السدود ولا ترده الحدود، فيكسر الجسور، ويقتلع الصخور، ويجعل عاليها سافلها حتى يأذن الله بسكونه، ويأمر بهدوئه (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيصَ الْمَاءُ) (هود/ 44)، نزول الماء عيد على الأقطار؛ وفرح عامر لسكان الأمصار، كأن نزوله على الناس ولادة مولود، أو عود مفقود، الماء طوع أمرك، ورهن إشارتك، يصغر جسمه حتى يسعه الكوب، ويكبر حتى يملأ المحيط، تشربه فإذا هو السائغ الممتع، وتغتسل به فإذا هو المنظف النزيه، يسخن ويبرد، ويعتدل ويجمد. الماء يحب الحرية والانطلاق، ويكره السجن والقيود، فإن حبسته في قفص الاتهام وحجزته في مكان الانتظار، تغيرت أخلاقه، واختلف مزاجه، لأنَّه طريف لطيف شريف، دعه يمر ويعبر، واتركه يسافر ويرتحل ليمر على الحدائق والحقول والمزارع، ويسلم على الخمائل والبساتين، ويزور الناس والدواب والطيور والزواحف، بل ويمر على الأرض كل الأرض (فَإِذَا أُنْزِلْنَا عَلَايْهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْزَبْنَا مِنَ الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ مَوْجٍ بَهيجٍ) (الحج/ 5)، (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْزَبْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ خَلَّ بِأَسِيقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَادَةً مَيِّتَةً) (ق/ 9-11)، (أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) (الرعد/ 17)، (وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ) (الشورى/ 28)، (وَيُنْزِلُ لِّلْأَعْيُنِ كُفٌ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهَّرَ بِهِ كُفٌ مِنْهُ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) (الأنفال/ 11)، (أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) (الزمر/ 21)،

(فَأَخْرَجْنَا بِهَا أَزْوَاجًا مِّنْ ذَبَاتٍ شَتَّى) (طه / 53) ، (أَفَرَأَيْتُمْ
الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ
نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)
(الواقعة / 68-70) ، (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ
يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ) (الملك / 30) ، (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ
الزَّيْتُونَ وَالزُّيْلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)
(النحل / 9-10) ، (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنْزَلْنَا السُّوقَ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ
فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَوْفُسُهُمْ أَفَلَا
يُبْصِرُونَ) (السجدة / 27) . المصدر: كتاب العظمة